

كانت عشتارُ إلهة طموحة لم تكتفِ بسيادتها للسماء فأرادت أن تحكّم مناطق العالم السفلي أيضاً والذي كان يرضخ لحكم أخت إنانا الكبرى التي سماها السومريون 'ايرشكيجال' إلهة الموت والظلام.

تسلّحت إنانا بكل النواميس والتعويذات التي تملكها تأهباً لتنفيذ خطتها المجنونة بالدخول إلى 'الأرض التي لا عودة منها'، وقبل أن تهمّ برحلتها أوصت وزيرها ننشوبر 'أنها في حال لم تفلح في العودة بعد ثلاثة أيام فعليه أن يندبها في 'مجمع الآلهة' ثم يشدّ الرحال إلى الإلهة إنليل 'كبير الآلهة السومرية' ثم ننا 'الإله القمر' فإذا لم يستجب حدهم لتوسلات الوزير لإنقاذ إنانا عليه أن يذهب إلى إنكي 'إله الحكمة' الذي لن يتوانى عن إنقاذها.

تهبط عشتار إلى العالم الأسفل وتقترب من معبد 'ايرشكيجال' المشيد بحجر اللازورد، فيعترضها عند الباب رئيس حراس المدخل ويطلب منها أن تعرّف عن نفسها فتلق عشتار عذراً لزيارتها ثم يقودها رئيس الحرس بموجب الأوامر والتعليمات التي تلقاها من سيده ملكة العالم السفلي 'ليمر' بها عبر بوابات العالم السفلي السبعة. وكانت كلما تمر من بابٍ تتجرّد من حللها وحلاها قطعة تلو الأخرى وبالتالي أخذت تفقد ما تسلّحت به من قوى سحرية، حتى إذا ما عبرت من البوابة السابعة والأخيرة جرّدت من كل شيء فأصبحت عارية، عندها أمرت أن تسجد لـ 'ايرشكيجال' و'الأونوكي' وهم القضاة السبعة المخيفون الخاصون بالعالم السفلي، صوّبوا إليها نظرات الموت وتحولت إلى جثة هامدة.

مرّت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وفي اليوم الرابع وعندما رأى ننشوبر أن سيده لم تعد ، بدأ رحلته نحو الآلهة ليستجير بها كي تنقذ إنانا من محنتها. رفض كلٌّ من إنليل وننا مدّ يد المساعدة، إلا أن الإله إنكي ابتدع سيلةً لبعثها للحياة بأن خلق مخلوقين لاجنس لهما وأمرهما أن يذهبا إلى العالم السفلي وينثرا طعاماً وماء الحياة على جثتها. استجاب الرسولان للأوامر وعادت إنانا إلى الحياة أذن لإنانا أن تقوم وتعود إلى الأرض ولكنها كانت في حراسة عدد من الشياطين الأشداء بُعثوا معها وأمروا بأن يعودوا بها إلى عالم الأموات إن لم تجد من يحل محلها وهكذا خرجت إنانا تسيرُ محاطةً بأولئك الشياطين بموكبٍ رهيب قصدت أولاً المدينتين السومريتين أوما وبادتبيررا ولكن سرعان ما حلّ الذعر في قلب الإلهين الحاميين لهما، فلبسا المسوخ وتمرغا في التراب أمام إنانا التي قبلت خضوعهم وتذلّهم فمنعت الشياطين من أخذهما.

ثم تواصل إنانا المسير ومعها حشد الشياطين حتى تصل إلى مدينة دموزي (تموز عند البابليين)، أبى دموزي ارتداء المسوخ أو التذلّل أمام قرينته بل أنه ارتدى حلل العيد والأفراح وتربّع على عرشه غير مبال. عندما رأت إنانا زوجها وحبیبها فرحاً غير حزين على موتها استشاطت غضباً وصوبت إليه نظرة الموت وقامت بتسليمه إلى زبانية العالم السفلي في مشهد مروّع.

حاول دموزي النجاة من مصيره، فنجح بالفرار من الشياطين ليختبئ بين الأعشاب ويطلب من أخته ألا تشي به. تذهب الشياطين إلى بيت أخت دموزي ويعذبوها ويقومون استجوابها من

أجل الاعتراف بمكان دموزي لكنها تقاوم وتفي لأخيها بوعدها بحمايته يخشى دموزي أن يصيب أخته الوفية شراً على يد هؤلاء الشياطين الذين لا يعرفون الرحمة فيقرر أن يسلم نفسه لهم. وما أن صار دموزي الإله المعذب بين يديهم حتى أشبعوه ضرباً بالعصي والسيات ويهيئوه لرحيل معهم. هنا يتوجه بالدعاء إلى أوتو إله الشمس طالباً معونته فيستجيب له ويحول يديه ورجليه إلى قوائم غزال فيفرّ هارباً.

لكن الشياطين تلقي القبض عليه مرة أخرى وتعود لضرب وتعذيب الإله المعذب مجدداً. لم ييأس دموزي ونجح بالهرب منهم مرة أخيرة واختبأ في حظيرة أخته ، لكن الشياطين شديدة البأس تصل له وتأخذه معها إلى العالم السفلي هنا شعرت عشتار بتأنيب الضمير فهي في الحقيقة مغرمةً به فطلبت من أختها تسويةً لإرضاء الجميع، وكان لها ما أرادت؛ وهي أن يقضي الإله تموز في عالم الأموات نصف سنة من كل عام تبدأ بشهر تموز تموت أثناءها الزراعة والماشية من شدة الحر والجفاف وينتشر القحط ويغادر بعدها ذلك العالم إلى عالم الأحياء في النص الآخر من السنة لتحلّ محله أخته التي تطوعت من أجله، وهذا مرتبط بالربيع فتعود الزراعة والخير، وهكذا دواليك

نزول عشتار الى العالم الاسفل واسطورة تموز في هذا العالم :

من الاساطير المهمة عن عالم ما بعد الموت بوجه خاص والمعتقدات الدينية بوجه عام نصوص اديبة تروى اسطورة نزول الالهة الشهيرة « انا » ( عشتار ) الى ذلك العالم الذي مر بنا ايجاز معتقداتهم فيه وتصورهم له ، ومن ذلك ان اخت عشتار الكبرى « ايريشكيكال » هي ملكته ومعها زوجها الاله « نرجال » الذي ذكرنا اسطورة صيرورته زوجا لها وملكاً معها في ذلك العالم . وسيتضح من ايجاز هذه الاسطورة علاقة الالهة عشتار بزوجها الاله « تموز » ( دموزي ) الشهير . وقد اكتشف لهذه الاسطورة المهمة روايتان ، رواية سومرية ورواية بابلية . فالرواية السومرية ، وهي الاقدم واصل الرواية البابلية ، قد وجد لها عدة الواح اكتشفت في اثناء التنقيبات التي اجريت في مدينتي « نمر » و « اور » وترقى في زمنها الى اوائل ما سميناه بالعصر البابلي القديم ( المنتصف الاول من الالف الثاني ق م ) . أما الرواية البابلية فيرجح ان زمن وضعها يرقى الى نهاية الالف الثاني . وقد اكتشفت نصوصها في مدينة آشور ( قلعة الشرفاط ) ، ووجد نسخ لها في مكتبة الملك آشور بانيبال ( القرن السابع ق م ) ، وسيتبين من الموجز الذي سنورده عن هاتين الروايتين مبلغ المضاهاة والشبه في النصين البابلي والسومري . على ان الرواية السومرية تتميز عن الانشورية بانها اطول واكثر تفصيلا ، كما ان الروايتين تختلفان الواحدة عن الاخرى في خاتمة الاسطورة التي أعقبت نزول عشتار الى عالم الاموات . فحين تكتمل الرواية الأشورية في هذه الخاتمة بموافقة الهة العالم الاسفل « ايريشكيكال » على اخلاء سبيل اختها « عشتار » من قبضة ذلك العالم مقابل وضع بديل عنها فيه بموجب قانون ذلك العالم بأن من دخله ، آلهة أو بشر ، لا يخرج منه الا مقابل وضع بديل عنه يحتجر فيه - نقول حين تكتمل الرواية الأشورية بهذه الخاتمة فان في خاتمة الرواية السومرية تفصيلات أخرى عن خروج الآلهة عشتار من ذلك العالم وصلة الاله « تموز » بهذا الحدث .

لم يزل الباحث الذي حدا بالالهة عشتار الى النزول الى العالم الاسفل

غامضا غير واضح ، وقد قيلت في ذلك جملة آراء منها الرأي الذي درج عليه قدماء الباحثين بان عشتار ذهبت الى ذلك العالم من اجل استعادة زوجها « تموز » من اسر عالم الموت ، ولكن لا يوجد ما يؤيد هذا الرأي فيما وصل الينا من نصوص مسمارية ومنها هذه الاسطورة موضوع بحثنا بروايتها السومرية والآشورية ، فليس فيهما ما يشير الى ان « تموز » كان موجودا في ذلك العالم قبل نزول عشتار اليه ، لكي تسترجعه منه . وفوق هذا سنجد في الرواية السومرية عن الاسطورة ما يشير الى نقيض ذلك فان « انا ، (عشتار) نفسها كانت السبب في حبس تموز في ذلك العالم وانها هي التي قدمته بديلا عنها مقابل قيامتها منه . وارتأى باحثون آخرون احتمال ان الباعث الذي من اجله نزلت عشتار الى عالم ما بعد الموت انما كان لاطلاق ارواح الموتى فيه ، وستررد بعض الاشارات في النص الآشوري الى هذا الغرض وهو غرض لا يعلم تفسيره كذلك . على ان الرواية السومرية تتضمن اشارة قد توضح الغرض من نزول عشتار ( انا ) ، ففي الاسطر ٧٥-٨٨ من نص هذه الاسطورة تجيب هذه الآلهة بواب العالم الاسفل بعد استجوابه لها عن سبب نزولها انها جاءت من اجل الاشتراك في شعائر ابدن الخاصة بزواج الآلهة « ايريشكيكال » المسمى « كو - كال - أنا » (Gugalanna) والذي قتل(\*) ، ولكن هذا المورد غامض بدوره ولا يوجد ما يوضحه في سياق الاسطورة ولا ينسجم مع الاحداث التي استبعت نزول عشتار وما لاقته من اختها « ايريشكيكال » من تعذيب وعزمها على ابقائها في ذلك العالم ولم تتحقق قيامتها من عالم الاموات الا من بعد تقديم

